ـع... ولا ربيع

الحرب عرفت السوريين إلى بلادهم: ما من ضيعة ضايعة!

من تظاهرة معارضة في آب 2012 في ريف حلب (أ ف ب)

ولّت أيام مهرجانات إحياء المدن المنسية في محافظة إدلب التي أقامتها الدولة سابقاً، بعدما زارت الحرب قرى منسية لتذكّر العالم بوجودها وأهلها على خارطة العنف القائم. وليصبح السوريون خبراء في مواقع المدن والبلدات

دمشق ـ مرح ماشي

في السنوات الثلاث الماضية، «تعرّف» السوريون إلى أسماء أحياء وقرى وبلدات ومدن لم يسمعوا بها سابقاً، ولم يعرفوا بوجودها على خريطة وطنهم. بعضها وصل الى «مرتبة العالمية» بعدما باتت الشغل الشاغل لوكالات الأنباء. قبل الأزمة، مثلاً، لم تفلح المبادرات الفردية في إحياء ثلاثمئة بلدة منسية في جبل سمعان والزاوية. وحدها الحرب أعادت مناطق «الطريق الروماني» بين حلب وإدلب إلى واجهة الأحداث. تقول سمر، الطالبة في الشهادة الثانوية: «اسألي السوريين والعرب عن بلدة كفرنبل. ستتباين الآراء بين من يرى أهلها الأظرف خلال عمر الأزمة، ومن يعدونهم الأكثر طائفية وتحريضاً. إلا أن الجميع بات يعرف أن كفرنبل تقع شمال غرب محافظة إدلب مثلاً». والأمر نفسه ينطبق على بنّش وأريحا الإدلبيتين، وعلى قرية البيضا في بانياس، وعلى الكثير من البلدات في ريف حلب وحمص وبقية المدن السورية.

الشهر الماضي، أدمت قلوب السوريين المجزرة التي ارتكبها المسلحون في بلدة معان، في ريف حماه الشمالي الشرقي. للوهلة الأولى، اختلط الأمر على البعض، وظن ان الحديث يجري عن مدينة معان الأردنية، قبل «دراسة» المنطقة جغرافياً وديموغرافياً.

هكذا، منذ اليوم الأول لبدء «الثورة» وُضعت المناطق السورية تحت مجهر الإعلام المحلي والعالمي. هنا بلدة عُرفت بمجزرة، وهناك مدينة اشتهرت بالحصار المضروب عليها، وهناك حي وصل الى «العالمية»، وآخر يُذكَر بتظاهراته وبحملات الاعتقال المتكررة على مفارقه. يذكر أمجد، طالب في جامعة البعث، أن وقوع مجزرة الحولة في أيار 2012، كان بداية عهد معرفته بحدود ريف حمص الشمالي مع مدينة حماه. واستطاع الشاب العشريني أن يميّز بعد هذه الحادثة، بين سكان الحولة وجارتها عقرب، من حيث الطائفة والخط السياسي، إذ شهدت القريتان مجزرتين حوّلتا المنطقة إلى مباريات من القتل والقتل المضاد. المجازر الإنسانية، بحسب أمجد، أكثر ما يمكن أن تشتهر به منطقة سورية.

وعلى المنوال نفسه، نالت أسماء الجوامع السورية، على كثرتها، شهرة جابت الآفاق، وخصوصاً تلك التي مثلت مواقع لصنع الأحداث، أو معالم تتحدّد من خلالها مواقع سيطرة القوى المتناحرة على الأرض. مثال على ذلك، جامع خالد بن الوليد وسط حي الخالدية الشهير في مدينة حمص، الذي سيطرت عليه قوات الجيش السوري قبل أشهر بعد معارك عنيفة، عاد على أثرها الحي المعارض إلى سيطرة الدولة. زياد، متظاهر سابق، يقول إن «الثورة السورية لم تأتِ بالتغيير على صعيد الحرية والتعبير عن الرأي فقط، بل جعلت من بعض المراكز انطلاقة لحراك شعبي واعٍ ومسؤول». يقدّم الشاب مثالاً: جامع الحسن في الميدان، أحد الأحياء الدمشقية العريقة. جامع الحسن، بحسب زياد، كان «محطة أسبوعية للاعتقالات التي يمارسها الأمن بحق المتظاهرين السلميين، الذين لم ينجرّوا إلى التسلّح».

المناطق الساخنة موضع جدل وتضامن السوريين وغير السوريين، كلٌّ بحسب انتمائه الطائفي والمناطقي. مثل كل شيء في عصر الأزمة السورية، وضعت المناطق المتناحرة إنسانية الجميع على المحكّ. السوريون الذين اعتادوا الاختلاف والخلاف على كل شيء، التقوا فقط على دراسة جغرافية المنطقة «الحدَث»، قبل الإدلاء بآرائهم حول ما يجري من مآسٍ. ويشير مازن الى أن الخبرة في المناطق السورية بدأت منذ بدء التظاهرات، وعلى أثرها جرى فرز للأحياء والمدن السورية بين أبناء البلاد. ويرى الشاب العاطل من العمل، أن الفرق بات واضحاً، للسوريين وغيرهم، بين حي الميدان، الذي اشتهر بتظاهراته الأولى، وحي المزة 86 المؤيد للنظام.

عند سؤال عدد من اللاذقيين عن قرية الغسانية، سيُفاجئك الرد بسؤال: أي غسّانية تقصد؟ إذ توجد قرية تدعى الغسانية في جبل الأكراد في ريف اللاذقية، إلا أن أبناء المدينة وريفها يعرفون جيداً أن هُنالك قرية تحمل الاسم نفسه، فاقت «غسّانيتهم» شهرةً، وتقع في ريف القصير بحمص. ويعرف السوريون الكثير عن الأقلية الطائفية التي تسكن القرية المطلّة على بحيرة قطينة، وعن حصارها من قبل مسلحي المعارضة طوال شهور. وقد يشرحون لك كيف كان منفذ القرية الوحيد للدخول والخروج يحتاج إلى قارب لعبور البحيرة. لم تعد في سوريا «ضيعة ضايعة» ولا بلدة منسية. عرّفت الحرب السوريين الى بلادهم كما لم يعرفوها سابقاً، جغرافياً وديموغرافياً وطائفياً!

صغيرة بألف ليرة سورية شهرياً في أحد فنادق المرجة الرخيصة. والبقاء مع عائلتها الصغيرة فيها، لتندمج في جو جديد لا يختلف عن ذلك الموجود في مراكز الإيواء من حيث الفقر وقصص الموت والخوف والبطالة.

تأسف سعاد على حياتها السابقة. تتذكر، بحرقة، مدينة حمص التي سكنتها قبل 7 سنوات عندما تزوجت. اليوم لم تعد تعرف شكل المدينة ولا ما حل بمنزلها. أفراد عائلة زوجها نزحوا إلى مناطق مختلفة، فيما قتل زوجها «بالغلط أثناء اشتباكات قرب حيّنا في بداية الأحداث».

في الغرفة المتواضعة تطبخ سعاد لعائلتها الصغيرة حيث ينامون ويستحمّون. أما الحياة الاجتماعية، فتقتصر على زيارة جاراتها في الفندق أو استضافة أحد أفراد الأسرة في البهو.

مصدر في وزارة الشؤون الاجتماعية قال لـ«الأخبار» إنه جرى استحداث عدد من المراكز منذ بداية الأزمة لاستيعاب المهجرين وتأمين حاجاتهم الأساسية بما يكفل لهم المعيشة اللائقة، «ونظراً الى الارتفاع الكبير في عدد المهجرين، بدأت لجنة إعادة الإعمار بالتنسيق مع اللجنة العليا للإغاثة ومع عدد من المنظمات الدولية العمل على إطلاق مشروع تشييد وحدات سكنية جاهزة لتأمين السكن المؤقت للمهجرين». أما النازحون خارج مراكز الايواء، فيؤكد المصدر «أن الوزارة تصل اليهم عبر تفعيل العمل الإغاثي للجمعيات الخيرية التي تتولى تقديم المساعدات الإغاثية الأساسية».

وعن المقيمين في المناطق المحاصرة، قال المصدر ان الوزارة تعمل مع «الهلال الأحمر» على وضع خطط للمتضررين في تلك المناطق وتأمين احتياجاتهم

> **آلاف النازحين لا يزالون حتى منتصف الشتاء من دون أغطية**

الأساسية، وذلك من خلال وضع خطط للوصول إلى مناطقهم. وقد نجحت أخيراً في فك الحصار عن دير الزور وإيصال المساعدات الإغاثية إليهم.

العمل الإغاثي باب للفساد

في دمشق، نشط العمل الإغاثي لمساعدة المهجرين والمنكوبين ممن توافدوا إلى العاصمة بعدما خسروا كل شيء. وبرغم كثرة العاملين وحجم الأموال المنفقة في هذا المجال، إلا أن واقع الحال يشير الى أن هذه الجهود لا تثمر بالضرورة، كأنها تصرف في غير مكانها، أو تعاني سوء التنظيم والإدارة. والأهم أن هذا النشاط فتح المجال أمام الطامحين الى جمع الأموال وتكديسها، إذ إن آلاف النازحين في مناطق بالقرب من دمشق لا يزالون حتى منتصف الشتاء من دون أغطية، ومن دون أية وسيلة للتدفئة، كأن جمعيات الإغاثة لم تعلم بهم أو لم تسمع عنهم، برغم الحملات الكبيرة التي نفذت في دمشق وضواحيها لتوزيع الحرامات والملابس.

يؤكد سامر، أحد الناشطين في العمل الإغاثي، لـ«الأخبار» أن أموراً كثيرة تعيق العمل الإغاثي في دمشق اليوم، «أولها السرية المالية. فالجمعيات غالباً لا تصرح من أين تأتي بأموالها ولا أين أنفقتها». ويضيف: «فكرة التعتيم على الحركة المالية تثير علامات استفهام. والأسوأ أن هناك جمعيات لا تعمل، لكن لها اسم، كما توجد جمعيات تصرف أموالاً كبيرة على المكاتب والمؤتمرات».

ويوضح علي مقداد، وهو من أوائل المتطوعين والناشطين في المجال الإغاثي، أن نسبة الفساد عالية في هذا المجال، لأن هناك إمكانية كبيرة للسرقة، «فكثيراً ما جمعت قوائم بأسماء العائلات المهجرة المقيمة خارج مراكز الإيواء لتقدم إلى رجال أعمال ومانحين بحجة جمع الأموال منهم، من دون أن تجد هذه الأموال سبيلها إلى المحتاجين ممن وردت أسماؤهم في القوائم».

والأغرب عند الحديث عن مشاكل العمل الإغاثي، بيع المعونات العينية التي تُقدّمها المنظمات الدولية، والجهات الحكومية والأهلية، في المحال وعلى الأرصفة والبسطات، وحتى من دون أن تشطب عبارات تؤكّد أنها غير مخصصة للبيع، وأنّها مستوردة لمصلحة منظمات وجمعيات الإغاثة!